الغواصة السياحية

ضرغام الدباغ

الغواصات سفن بحرية مهمتها أن تمخر تحت سطح الماء، وعلى الأغلب لأغراض حربية، والبدائية منها يعود عهدها إلى العصور القديمة(القرن السادس عشر)، ولكن صناعتها بدقة وكفاءة تقنية، أبتدأ بعد الحرب العالمية الأولى. وقد تسنى لي مشاهدة غواصة تعود لعصر الحرب العالمية الأولى راسية في إحدى القواعد البحرية وقد تحولت لمرفق سياحي في جزيرة قرب العاصمة هلسنكي.

وفي محاولاتنا البحث في الأرشيف والموسوعة الألمانية، عثرنا على رقم يشير إلى عدد الغواصات الألمانية المنتجة خلال الحرب العالمية الثانية وهو رقم كبير جدا (1.162 غواصة من كافة الفئات) دمر وغرق منها 385 غواصة، وما تبقى منها (عواصة377) سلمت للحلفاء أو أغرقها الألمان بأنفسهم. (*) الارشيف الألماني 08ـ 07 ـ 2022

تطور تتقنيات صناعة الغواصات بدرجة ممتازة، ويشير إلى ذلك سجلات حوادث تعرضت لها الغواصات، (ومعظمها حربية)

1. منذ عام 1947 غرقت 75 غواصة.
2. الأولى كانت أمريكية بتاريخ 26 / آب / 1947 أسمها كوشينو (Coshino) .
3. آخر غواصة كانت الأرجنتينية في تشرين الثاني / 2017 وأسمها سان خوان (San Jaon). **(*)**

والحادثة التي كانت للغواصة الأمريكية السياحية (بخمسة ركاب) تيتان (Titan)، بين 18/ حزيران، و 22/ منه، والمتخصصة بالغوص لأعماق سحيقة، تفوق العمق المألوف في الغواصات الحربية الكبيرة ذات الأعماق الكبيرة (300 ـ 600 متراً تحت سطح الماء (وهي قدرة أفضل الغواصات الحربية) وهذه الفئة من الغواصات السياحية / أو المخصص للاستكشافات العلمية لأعمال البحار والمحيطات حتى عمق 11 كيلومتر (1100 متر) وخاصة في عمليات أستكشاف أعماق المحيط الباسفيكي (الهادئ).

والغواصة الأمريكية تيتان كان مقدراً لها أن تغوص إلى حيث حطام الباخرة تيتانيك التي غرقت قبالة الساحل الأمريكي عام 1912 والراقدة على عمق 3810 متر، في قاع المحيط الأطلسي على

بعد 1450 من الساحل الأمريكي (ولاية ماساتشوتتس) و 644 كيلو متر عن الساحل الكندي (مقاطعة نيوفاونلاند).

الغواصة السياحية تيتان صغيرة ولا يتعدى حجمها سيارة شحن صغيرة(بيكب) طولها 6,7 متر، ووزنها يزيد على 10 طن، تديرها الشركة (Ocean Gate Expedition) في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تحمل معها أوكسجين يكفي ل 96 ساعة، وأطعمة كافية لهذه المدة. وكانت قد غطست يوم الأحد 18/ حزيران / 2023، وعلى متنها خمسة أشخاص، بهدف رؤية مباشرة (عيانية) لحطام سفينة تايتانيك، وقد دفعوا أجرة لهذه المشاهدة كل راكب 250,000 الف دولار، وفقد الأتصال معها بعد الشروع بالغطس بساعة وخمسة وأربعون دقيقة، أي أنها كانت قد وصلت، أو كادت أن تصل لهدفها (جسم السفينة الغارقة تيتانيك في قاع المحيط الأطلسي).

البحرية الأمريكية لمحت أنها علمت مبكراً بانهيار الغواصة حسبما أشرت عندها أجهزة سرية بالغة الدقة، لم تفصح عنها، بالتكتم على تكنولوجيتها السرية. وفي حالات كهذه لا يمكن الركون إلى الاستنتاجات حتى العلمية منها، بل إلى ما تتوفر من أدلة مادية، (حطام الغواصة، أو جثامين الغرقى) وهو ما لم يتم إلا يوم الخميس 22 / حزيران / 2023. حين عثرت مسيرات على قطع مؤكدة من أجزاء الغواصة بما في ذلك إطار الهبوط، والغطاء الخلفي الذي يشير لأسم الغواصة والشركة المالكة له، بالقرب من حطام السفينة الغارقة تايتانيك عام 1912.

وبعد الاعلان الرسمي الصادر من البحرية الأمريكية، بالعثور على بقايا الغواصة تيتان، بالقرب من حطام السفينة تايتانيك، على عمق 3819 متر، على بعد 644 كيلومترا من مقاطعة نيوفاونلاند، و1450 كيلومتراً عن البر الأمريكي.أنطلقت التحليلات، مع أن مازال مبكراً الحديث عن جثامين الركاب الخمسة، وهم: بريطانيان من أصل باكستاني (أب وأبنه)، ومليلردير بريطاني، ومستكشف فرسي، ومالك شركةOcean Gate Expedition) .

والآن سيتواصل الحديث عن أسباب تحطم الغواصة، وطالما أن حطام الغواصة غير متوفر، ولا جثامين القتلى، فالتحليلات ستكون بناء على المعطيات العلمية والتقديرات. لكن من المؤكد أن الغواصة لم تعلق بشيئ تحت الماء، لأن حطامها متناثر في قعر المحيط، فالغواصة قد تحطمت إذن وهذا بفعل خارجي، أي ليس بسبب خطأ بشري، ورغم وجود حقيقة أن جهاز السيطرة في الغواصة على ما يذكر بعض الخبراء مما شاهدوا الغواصة قبل تحطمها، يذكرون أن جهاز السيطرة على الغواصة بسيط يشبه تماماً الريموت كونترول لألعاب البلاي ستيشن (playstation). كما يعتقد بعض المختصين أن بناء الغواصة جرى بسرعة، واستخدمت فيها مواد غير موثوقة بدرجة كافية لهذه المهمة الصعبة.

ومن جهة أخرى، يؤكد خبراء بناء على معطيات تقنية، أن الغواصة تعرضت لأنفجار لم يستغرق سوى أجزاء من الثانية، فأنهارت الغواصة تحت ضغط هائل، يكفي لتفسخها إلى أجزاء صغيرة، وضغط لا تستطيع أي غواصة تحمله. عادة ما تُصمم الغواصات لتحمل الضغط الكبير الموجود تحت الماء على أعماق تصل إلى نحو 4000 متر. إذ يكون الضغط في قاع البحار أعلى بحوالي 400 مرة من مستوى سطح البحر. لذلك، فإن أي ضرر أو عيب يلحق بهيكل الغواصة يمكن أن يؤدي إلى تسرب من شأنه أن يؤدي إلى انهيارها على الفور تحت هذا الضغط الهائل.

وقال أحد الخبراء، " إن الركاب "لن يعرفوا حتى حدوث ذلك، الضغط هناك على مسافة 4000 متر تحت سطح البحر مرتفع جدًا. حوالي 5800 رطل لكل بوصة مربعة في منطقة عمق تايتانيك". وأضاف: "إذا كان قد حدث أي نوع من التسرب، مهما كان ضئيلاً فسيؤدي ذلك إلى انفجار داخلي

وسيحدث في لحظة، وعلى الفور " وقال خبير آخر "إذا فشل وعاء الضغط سيشكل كارثة، فإنه يشبه انفجار قنبلة صغيرة."

ومع ذلك، نظرا للعثور على الحطام والانفجار الداخلي المحتمل، ربما لم يعان الركاب طويلًا وكان موتهم سريعاً، ثانيتان فقط ....! هكذا أحد مؤسسي شركة "OceanGate" المنظمة لرحلات الغواصة، في حديث صحفي .

ولكن لننظر إلى الجهة الإنسانية للحادثة، وقب فترة قصيرة (بضعة أيام) غرقت سفينة في مياه البحر الأبيض المتوسط تحمل حوالي 800 مهاجر يحلمون برفاهية أوربا، ومن أجلها يركبون المخاطر لبلوغها، وهي في المحصلة أوهام، فليس كل من يصل لأوربا نال الحلم، وليست الحياة دائماً ناعمة وطيبة، ولكل مسألة وجهه القاسي، للأسف الناس في كثير من البلدان يعتقدون واهمين أنهم ببلوغهم الأراضي الأوربية قد بلغوا الحلم، وهذا للأسف غير صحيح، ولكن فرص تعديل الحلم الخطأ ضئيلة.

الثري البريطاني / الباكستاني دفع نصف مليون دولار ليتفرج على حطام التايتانيك بضعة دقائق ... ولا أدرى ما المغزى بذلك، في سفرة لا قيمة مطلقا للتجربة فيها، لا تنطوي على مكسب علمي أو عقلي أو حتى المتعة المجردة، سيشاهد حطاماً يمكن أن يشاهده أوضح و أفضل في التلفاز . ألم يكن أفضل للباكستاني أن يمنح هذه الأموال الطائلة التي يمكن أن تعيل مئات الباكستانيين الفقراء، وحين يشاهدهم في حال أفضل ... هي السعادة العظمى ...!

ما قيمة أن تشاهد الحطام لسفينة غارقة قبل 112 عاماً ...؟ لقد شاهدت (بالطبع مجاناً) في إحدى مولات (أسواق) ببرلين، قطع انتشلوها من بين حطام السفينة تايتانيك، ولم تستغرق رؤيتها مني سوى ثوان ...

شيئ واحد أراحني، حين قرأت أن الركاب الخمسة فقدوا حياتهم في غضون ثانيتين فقط ...! من يدري، ربما كان هؤلاء أو بعضهم يتعذبون شر العذاب لو أصيبوا بمرض عضال يتمنون الموت ولا يجدوه ..!

(*) الارشيف الألماني 08ـ 07 ـ 2022